٢ ـ أصحاب المعالي

(إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها)

« حديث شريف »

للأستاذ محمد محمود زيتون

والسموأل (١) يباعد ويقارب بين الطرفين البعيدين في هذه الصورة الشعرية إذ يقول :

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا ينال طويل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره ... يعز على من رامه ويطول
علونا إلى خير الظهور وحطنا ... لوقت إلى خير البطون نزول

ولم يكن أمام الحارث بن حلزة ما يعوق رقيه وانتماءه إلى ذروة الشرف ، يقول :

فبقينا على الشناءة تنمينا ... حصون وعزة قعساء

ويقول عنترة العبسي وقد جمع بين الحركة إلى أعلى وخوض الحروب ونيل الرتب :

ولي بيت علا فلك الثريا ... تخر لعظم هيبته البيوت
وخضت بمهجتي بحر المنايا ... ونار الحرب تتقد اتقادا
لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ... ولا ينال العلا من طبعه الغضب

وهو الذي لم يقعد بسواد وجهه عن النهوض والجهاد . وفي ذلك يقول :

واختر لنفسك منزلا تعلو به ... أو مت كريما تحت ظل القسطل
إن كنت في عدد العبيد ، فهمتي ... فوق الثريا والسماك الأعزل
وبذابلي ومهندي نلت العلا ... لا بالقرابة والمديد الأجزل
لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

تلك هي مؤهلات المجد التي ابتدعها عنترة ، وحرص على إبرازها ، فكان له مكانه الممتاز بين أصحاب المعالي ، وحسبه شرفا أن له ـ وهو العبد الأسود ـ همة عالية نالها بالقوة لا بالانتساب إلى سادة العرب محتدا وعديدا ، وأحق معادن الرجولة بالإشادة هذا المعدن العنتري النادر أو كما يقول شاعر قديم :

إذا ما علا المرء رام العلا ... ويقنع بالدون من كان دونا

أو كما يقول أمير الشعراء شوقي :

شباب قنع لا خير فيهم ... وبورك في الشباب الطامحينا

وأصحاب المعالي من القوة بحيث يتفاوتون في درجات التصعيد ، كل على حسب طاقته من التصميم على إدراك الغاية : فهذا النابغة الذبياني يمدح عمرو بن الحارث « ألا أنعم صباحا ، أيها الملك المبارك ، السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك .. والسخاء ظهارتك ، والحمية بطانتك ، والعلا غايتك . » وتلازمه هذه النزعة حتى وهو يمدح النعمان بن المنذر ملك العرب :

كأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

هذا في حين نرى عنترة ـ وهو الباطش الشديد ـ يتوعد النعمان بهذا الشعر الملىء بالقتيرة ، المفعم باللهيب ، المختضب بالدماء :

اليوم تعلم يا نعمان أي فتى ... يلقى أخاك الذي قد غره العصب
فتى يخوض غمار الحرب مبتسما ... وينثني وسنان الرمح مختضب
إن سل صارمه سالت مضاربه ... وأشرق الجو وانشقت له الحجب
والخيل تشهد لي أني أكفكفها ... والطعن مثل شرار النار يلتهب
والنقع يوم طراد الخيل يشهد لي
والضرب والطعن والأقلام والكتب

ومن هنا نرى الفرق بين النعمان وعنترة في القدرة على التصعيد في طلب المعالي النادرة ، والامتزاج بالطبيعة في توليد القوى الدافعة الرافعة معا

وهذا ابن النير الطرابلسي ينزل القمر ـ كرمز للجمال ـ من السماء إلى الأرض فيقول :

وأنزل النير الأعلى إلى فلك ... مداره في القباء الخسرواني

ومثله في هذا محمد بن وهيب إذ يقول :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم
شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

(١) من أشراف يهود يثرب مات سنة ٦٢ ق . هـ

وكان زهير بن أبي سلمى — على تقواه وورعه وسيادته وغناه — من دعاة المغامرة في طلب العزة ولو لقي في ذلك حتفه ، قال يمدح الرجلين الساعيين في إصلاح ذات البين بين عبس وذبيان ، وذلك كنز من المجد يرفع صاحبه : قال :

عظيمين في عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه ... يطيع العوالي ركبت كل لهذم (٢)
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ويقول أمية بن أبي الصلت : وقد أدرك الإسلام ولم يسلم :

ورثنا المجد من كبرى نزار ... فأورثنا مآثرنا يقينا

وهو المادح بقوله :

وأرضك كل مكرمة بنتها ... بنو تيم وأنت لها سماء

وبذلك جعل الطريف سقفا للتليد . والسماء أشرف من الأرض على كل حال

ومن أصحاب المعالي الشعراء من جعل للعلا عينا وحاجبا ، واختار لها خدنا وقرينا ، من هؤلاء الخطيب أبو محمد إذ يقول :

« ولقد رأيت الثناء حقا واجبا . على من غدا للعلا عينا وحاجبا ، وسلب الوفاء صاحب القوس (حاجبا) (٣) . وقال أيضا :

من ذا يفيد فديتكم زواره ... خطط النوال فرائبا ورغائبا
أم من غداخدن العلا وقرينها ... فظننت ذا عينا وهذا حاجبا

وجعل أبو العتاهية للعلا يداً إذ قال في مدح الرشيد :

بسطت لنا شرقا وغربا يد العلا ... فأوسعت شرقيا وأوسعت غربيا

وأكثرهم يجعل المجد بناء يسقفونه بالممدوح أو يجعلونه رداء وإزاراً له ، قالت الخنساء في صخر :

وإن ذكر المجد ألفيته ... تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقال أبو فراس الحمداني في رثاء جابر بن ناصر الدين :

لما تسربل بالفضائل وارتدى ... برد العلا واعتم بالإقبال

وقال الإمام السبكي وقد جعل المعالي أذيالا يجرها بنو النجار فخرا بالنبي :

نزلت على قوم بأيمن طائر ... لأنك ميمون السنا والنقيبة
فيا لبني النجار من شرف به ... يجرون أذيال المعالي الشريفة

وحافظ إبراهيم قد تجشم الصعب لكي يلبس المجد معلما ، بينما جعل محمود صفوت الساعاتي للعلا عيونا تبكي على عزيز راحل :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب ... ومزقت ثملها من حزنها الكتب

ومنهم من نصب خيام العز على ظهر السماك ، فهذه تقية بنت الخطيب تقول :

أعوامنا قد أشرقت أيامها ... وعلا على ظهر السماك خيامها

ومنهم من لم يرض بالأرض مقاما ، فارتفع إلى ما فوق السماء بالعفة والكرامة ، قال أبو ليلى النابغة عبد الله بن قيس في حضرة رسول الله :

علونا السماء عفة وتكرما ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فغضب رسول الله ، وبان ذلك في وجهه وقال : إلى أين المظهر يا أبا ليلى ؟

قال : إلى الجنة يارسول الله . فقال النبي : أجل إن شاء الله ذلك لأن الله سبحانه وتعالى وصف الجنة بالعلو فقال : « في جنة عالية »

ويقول أبو النجم العجلي :

ثم جزاه الله عنا إذ جزى ... جنات عدن في العلالي والعلا

ويقول أبو العتاهية في القلم :

لك القلم الأعلى الذي بسنانه ... يصاب من المرء الكلى والمفاصل

ومن شعراء العرب من يقصر المعالي أحيانا على الممدوح فيقول :

قل لأمير المؤمنين الذي ... له العلا والمثل الثاقب

وقد ينزل أحدهم الثريا من السماء ليضعها على نحر الحبيب فيقول :

---

(٢) الزيزج بكسر (الزاي) جمع زج ، وزج الرمح أسفله ، وعاليه أعلاه . واللهذم هو السنان الطويل والمعنى : من عصى أسافل الرمح التي لا تنال أطاع عواليه التي نافذة . ومن لم يطع باللين أطاع بالشدة

(٣) هو حاجب المنذر ومن قوسه كسرى

كأن الثريا فوق ثغرة نحرها توقد فى الظلماء أى توقد

وإنما يرتفع الفرد وتعلو الجماعة بشدان الكمال جداواجتهادا كما يقول القائل :

دنوت للمجد والساعون قد بانوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تدرك المجد حتى تلعق الصبرا

ولا يخفض القبيلة وأفرادها إلا التخلف عن طلب المعالى ، قال الشاعر فى (قصى) :

ألهى قصيا عن المجد الأساطير ورشوة مثلها ترشى السفاسير
وأكلها اللحم بحتا لا خليطله وقولها : رحلت عير .. أنت عير

وما أبدع الجمع بين الغرام والجهاد فى قول الشاعر الذى يطلب العزة فى الكأس والقبلة ، وقد تمناها فى قبة الفلك وجبهة الأسد ، وترفعا بهما عن الابتذال :

ليت الملاح وليت الراح قد وضعا فى جبهة الليث أو فى قبة الفلك
كيما يقبل ذا حسن سوى ملك ولا يطوف بحانات سوى ملك

ويضع الحافظ أبو الطاهر السلفى أهل الحديث فى أعلى مكان حيث لا يدانيهم أحد من الناس :

أهل الحديث هم الرجال النزل ومن المعالى فى الأعالى نزل
هل يستوى السمك الذى تحت الثرى
أبدا مقيم والسماك الأعزل

أما الخنساء فقد قالت ترثى أخاها صخرا وفى مرجل نفسها تعتمل عناصر القوة مع مؤهلات المجد

طويل النجاد رفيع العما د ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا أياديهم إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذى فوق أيديهمو من المجد ثم مضى مصعدا
يحمله القوم فوق ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى

وتقول أيضا :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم من فوقه نار

ومن الناس من يتعالى بنفسه إذا تكبر عليه أحد أو تباعد عنه ، قال الشاعر :

وإنى إذا ما لم تصلنى خلتى وتباعدت منى اعتليت بعادها

أى علوت بعادها ببعاد أشد منه ، وقال أحمد بن بلال بن جرير

لعمرك إنى يوم فيد لمقتل بما ساء أعدائى على كثرة الرجز
أى عال قادر قاهر

وليس يتساوى عند الموت خامل وعامل ، فمن كان فى الحياة عاليا فهو كذلك عند الموت ، قال أبو الحسن الأنبارى فى رثاء أبى طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة بن بويه عندما صلبه عضد الدولة ، وتمنى الشاعر أن لو كان هو المصلوب ، وقيلت فيه هذه القصيدة التى قال فى مطلعها :

ولو فى الحياة وفى الممات لحق تلك إحدى المعجزات

ومنها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات

ومنها :

ولم أر قبل جذعك قط جذعا تعكن من عناق المكرمات

حتى المرأة كانت ترى أنها صاحبة المعالى حين تبدى زينتها وتمشى تيها ودلالا ، فقد كتبت ولادة بنت المستكفى على تاجها بسلوك من الذهب :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها
وأمكن عاشقى من لثم ثغرى وأعطى قبلتى من يشتهيها

وليس يصلح للمعالى كل من استند إلى نسب أو حسب ، وإن كان يصلح لها خامل الآباء إذا طلب الأسباب ، لهذا يقول أبو الأسود الدؤلى :

كم سيد بطل آباؤه نجب كانوا الرءوس فأمسى بعدهم ذنبا
ومقرف خامل الآباء ذى أدب نال المعالى بالآداب والرتبا

وبالعزيمة الصادقة يبلغ المرء هذه الدرجات كما تقول ليلى الأخيلية :

فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه ولا ينفك جم التصرف
ينال عليات الأمور بعزمه إذا هى أعيت كل خرق مشرف

ويتفلسف ابن المعتز فى « مؤنة المعالى » فيقول :

« لن تكسب - أعزك الله - المحامد ، وتستوجب الشرف إلا بالحمل على النفس والمال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال ، ولو كانت المكارم تنال بغير مؤنة لاشترك فيها

السفل والأحرار ، وتساهما الوضعاء من ذوي الأخطار ، ولكن الله تعالى خص الكرماء الذين جعلهم أهلها. فخفف عليهم حملها وسوغهم فضلها ، وحظرها على السفلة ، اصغر أقدارهم عنها وبعد طباعهم منها ، ونفورها عنهم واقشعرارها منهم »

أما الفرزدق فيرى مؤهلات المجد فى عزة النفس وكثرة العدد:

لنا العزة القعساء والعدد الذى
عليه إذا عـــد الحصى يتخلف

ويرى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب أن الإسلام هو العيش العالى ، ولو أصيب فى سبيله بما أصيب ، فهو القائل عندما قطعت رجله فى غزوة بدر ، وتوسد قدم النبى عليه السلام :

فإن يقطعوا رجلى فإنى مسلم أرجى به عيشا من الله عاليا
وألبسنى الرحمن من فضل منة لباسا من الإسلام غطى المساويا

ويرى الإمام على كرم الله وجهه أن مطالب العلا كثيرة ، وتستلزم بذل المال ، وحسن الخلق ، والاعتصام بالله وحده ، وشكر نعمه ، وكذلك العلم والسفر فهو القائل :

ونافس ببذل المال فى طلب العلا بهمـــة محمود الخلائق ماجد
وبالله فاستعصم ولا ترج غيره ولا تك فى النعماء عنه بجاحد

ويقول :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمو على الهدى لمن استهدى أدلاء

ويقول :

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا
وسافر ففى الأســـفار خمس فوائد
تفرج غم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل فى الأسفار ذل ومحنة وقطع الفيافى وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من مقامه بدار هوان بين واش وحاسد

ويرى البارودى كل شئ محبب فى سبيل المعالى :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

أما شوقى فيتخذ عزة النفس والإباء سلما لطلب العلا :

ينال العلا من لا يرى فى سبيلها رضاء بخسف أو قعودا إلى حكم
أأقبل أن يستعبد الضيم مهجتى وما خلقت إلا قضاء على الضيم

والعلم فى نظر الشيخ طنطاوى جوهرى هو مذهبه فى المعالى :

لى فى العلا مذهب سارت به السفن
فلا أبالى إذا ما ضله الخلف

ومنها :

أبيت إلا المعالى والمعارف إذ أرى الجهالة عارا ليس ينكشف
وكم خطبت المعالى وهى ترمقنى ولم يمقنى عن إدراكها الترف

ولم يكن خجل عائشة التيمورية ولا الحجاب بمانعها عن العلياء :

ما عاقنى خجلى عن العليا ولا سدل الخمار بلحتى ونقابى
عن طى مضمار الرهان إذا اشتكت صعب السباق مطامح الركاب

ويحتفل صفى الدين الحلى بالأخطار والأخلاق ، ما دامت عليات الأمور رائد الكريم :

لا يحتطى المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفوا بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطرا
لا بد للشهد من نحل يمنعه لا يجتنى النفع من لم يحمل الضررا
لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ولا يتم المنى إلا لمن صبرا

ويقول :

ولا ينال العلا إلا فتى شرفت خصاله فأطاع الدهر ما أمرا

والعفاف والإقدام والحزم والجود هى المؤهلات التى لابد منها — فى نظر أبى العلاء — فى سبيل المجد :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

ولا يحمى الشرف العالى من الأذى إلا السيف فى رأى المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ولا يصون العلا فى نظره إلا استعمال الشدة فى موضع الشدة ، والحلم فى موضع الحلم :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهمو ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

الكلام صلة محمد محمود زيتون